المشرق

اكتشاف اليسوعيين للنيل الازرق

نبذة تاريخيّة للاب موريس شان اليسوعي مدرّس اللغة القبطيّة في المكتب الشرقيّ

كان دخول اليسوعيين الى الحبشة اوّلاً سنة ١٥٥٤ في عهد النجاشي قلاوديوس (١٥٤٠—١٥٥٧) . وما لبثوا بعد زمن قليل ان اكتسبوا ثقة الاهلين بغيرتهم وتفانيهم وانعشوا فيهم روح الايمان المسيحيّ كما قبلوهُ من موارده الصافيـة في ايّام القديس اثناسيوس . وكان الملـك يجلّهم ويصغي الى رأيهم وكذلك الشعب كان يتقاطر الى استماع تعاليمهم ويكرمهم كاصفيـاء الله . لكنّ الاكليروس القديم خاف على سطوته وتصدّى لمعاكستهم واضمر لهم السوء على انّ هذه المقاصد الخبيثة لم تأتِ بثمرها الّا بعد زمن في عهد الملك فاسيلادا فلمّا كانت السنة ٦٣٢ جاء الحبش « ابونا » (اي اسقف) جديد من الاسكندريّة وكان آلى على نفسه ان يخرج المرسلين من بلاد النجاشيّ فنفخ في قلوب الحبشة ما كان في قلبه من البغض وتعقّب المرسلين مع المرتدّين الى الكنيسة الرومانيّة حتى استأصل شأفتهم . واستشهد في تلك الاثنـاء كثيرون من اليسوعيين وغيرهم وأقفلت ابواب الحبشة في وجه دعاة الدين الكاثوليكيّ

وكان اليسوعيّون مدّة اقامتهم في الحبشة مع قصر الزمان تولّوا اعمالاً مشكورة لا يزال العلماء يذكرونها باثناء الطيّب . فمن ذلك عدّة تآليف صنّفوها في تعريف تلك الجهات النازحة وآدابها واحوالها السياسيّة كما كان رأيهم في كلّ البلاد التي يقيمون عليها للتبشير فيخدمون العلم والدين على سواء . ومما يستحقّ الذكر من هـذه المصنّفات تاريخ الحبشـة للاب پايز (١٥٦٤—١٦٢٢) وثلاث رسالات مطوّلة

للاب بارّادو (١٥٧٢—١٦٣٣) تتضمّن الواحدة تاريخ مدينة عدن. ومنها تاريخ واسع للاب دي ألميدا (١٥٨٠—١٦٤٦) وكتاب بشـة الحبش للاب الفنس منداس (١٥٧٩—١٦٥٦) كتبها في اللغة الحبشيّة . وقد اخذت ايدي الضياع كثيرًا من هذه الآثار فبقي منها النزر القليل كمختصر تاريخ الاب دي أليدا للاب تيلّاس كتبهُ سنة ١٦٦٠ وتاريخ الاب منداس الذي طُبع في اللاتينيّة سنـة ١٦٩٢ . ويوجد قسمٌ آخر ليس باليسير مترويًا في زوايا المكاتب لا يزال ينتظر رجالًا من ذوي الهمّة ليستخرجوهُ من دفائنهِ كما فعل حديثًا المسيو كنتي روسيني واستيفاس پيريرا اللذان نشرا بعض شذور من هذه الكنوز الادبيّة (١

امّا سبب اهمال تلك المآثر الثمينة فانما كان قلّة المنقطعين لدرس اللغة الحبشية لانّ بلاد الحبشة كانت تُعَدّ في الاجيال السالفة في جملة الاقطار الهمجيّة التي ليس من وراء معرفتها فائدة تُذكر . فلمّا دخل اليسوعيّون انصرفت اليـها الافكار واخذ العلماء في درس آثارها لكنّ هذه الهمّة ما فتئت ان كبا زندُها وتقلّص ظلّها بعد نفي اليسوعيين من مملكة النجاشيّين واضحت الدروس الحبشيّة نسيًا منسيًا الى ان توجّهت ثانيـةً انظار اوربّة الى تلك البلاد بعد ان عاد اليهـا ثانيةً في اواسط القرن السابق المرسلون الكبوشيّون واللعازريّون وطافها بعض ذوي المدارك السامية كالمسيو دي ابّادي وغيره . فرجعت الدروس الحبشيّة الى زهوها ودخلت في جملة اللغات المدرّسـة في الكليّات الاوربيّة

وممّن اشتهروا هذه المدّة الاخيرة بمنشوراتهم الحبشية حضرة الاب بكّاري اليسوعيّ الروماني فانّهُ باشر في طبع مجموع واسع يشمل عدّة مجلّدات يضمّنها كثيرًا من تآليف الآباء المرسلين الدينيّة والادبيّة والعلميّة التي تمكّن من اكتشافهـا في خزائن الرهبانيّة اليسوعيّة ومكاتب الدول وها هوذا قد انجز من ذلك مجلّدين اقبل عليهـا العلماء برغبة عظيمة ووجدوا فيهما دليلًا قاطعًا على همّة المرسلين القدمـاء الذين رفعوا حيثما حلّوا لواء العلم والدين لم يفصلوهما البتّة وهما كفرسي رهان في حلبة المدنية

(١) وقد نشر حضرة الاب اطون رياط فصلًا من تاريخ الاب أليـدا في استشهاد الاب المكرّم ابراهيم جرجس الحلبيّ الماروني (Documents pour servir à l'histoire du Christianisme en Orient T. I.)

*

وقد اطلعنا نحن ايضاً على هذه الآثار الحديثة الطبع فتحققنا انَّ للمرسلين فضلاً آخر كان البعض انكروهُ عليهم وهو سبقُهم الى اكتشاف النيل الازرق

وكان القدماء منذ قرون عديدة يبحثون عن منشإ النيل وعن مخرج ينابيعهِ وهذا الامر لم يتجلِ تماماً الَّا في العصر الاخير باكتشاف اصل النيل المعروف بالابيض من بحيرتي فكتوريا نيانزا والبار عند خط الاستواء. وفي هذا النيل الابيض ينصبُّ قرب الخرطوم النيل المعروف بالازرق المدعو ببحر الغزال الذي كان اصلهُ مجهولاً فتوفق الى اكتشافهِ احد الآباء اليسوعيين وهو الاب پايز (Paez) الذي أُرسل الى الحبشة ليدعو اهلها الى طاعة الكرسيّ الرسوليّ فطاف تلك الاصقاع وردّ كثيرين الى الحظيرة البطرسية وكان في اثناء تجوالهِ يصف الجهات التي يعاينها الى ان بلغهُ ذكر نهر النيل بواسطة قبائل تلك البلاد فاحبَّ ان يرحل اليهِ واتمَّ مقصودهُ فعلاً فوصف ما رأى في كتابٍ بقي حتى الآن بين دفائن المكاتب فاظهرهُ الى النور حضرة الاب بكّاري. وينشر هذا الاثر النفيس حلَّ مشكلٌ تاريخيّ كان زمناً طويلاً موضوع البحث والجدال بين العلماء كما سترى

كانت رحلة الاب پايز من الحبشة الى ينابيع النيل في اوائل القرن السابع عشر. فبعد وفاتهِ بنحو ١٥٠ سنة قدم بلاد النجاشيّ احد اعيان الانكليز اسمهُ جمس بروس (J. Bruce) تجشَّم السفر الى الحبشة سنة ١٧٦٨ فراراً من احزان كدَّرت صفاء حياتهِ في موطنهِ فتوغل في بلاد الحبش وصعد انجادها ولم ينكفئ راجعاً حتى وصل الى ينابيع النيل الازرق. فلمَّا عاد الى مسقط رأسهِ سنة ١٧٧٢ جعل يسطّر اخبار رحلتهِ ونظم ما صنع بذلك لولا انَّهُ خلط الغثَّ والسمين واضاف الى اشياء صحيحة اموراً غريبة لا سند لها غير مخيلتهِ. وما هو اخطر من ذلك انَّهُ نقل عن تآليف اليسوعيين الذين سبقوهُ اشياء كثيرة سكت عن اصحابها ونسبها الى نفسهِ. ومما ادَّعاهُ انَّهُ هو اوَّل من توفَّق الى اكتشاف النيل الازرق وذلك في كتابهِ المعنون « رحلتي الى اكتشاف ينابيع النيل » الذي طبعهُ في سكوتيا سنة ١٧٨٠ وانكر انَّ اليسوعي پايز بلغ الى معرفتهِ زاعماً انَّ ما ذكرهُ في هذا الصدد الاب أثناس كيرخر (Aedipus Aegyptiacus, I, p. 57, ed. Rome, 1652) انَّما هو

محض اختلاق. وادّعى ان وصف الاب پايز الذي كان اختصرهُ الاب كيرخر ليس بمدقّق ومن ثمَّ لا يستحقُّ الاعتبار. على انَّ الهوى الذي يعمي البصيرة خدع هذه المرَّة ايضاً عقل الرحَّالة بروس ولمَّا دافع عن صحَّة اكتشافهِ لم يروِ من ملخَّص الاب كيرخر الَّا بعض الاسطر لينقض معانيها

وها نحن رعايةً للحقّ وبيانًا لفضل المرسلين نثبت هنا الوصف الذي كتبهُ الاب پايز قبل بروس باكثر من ١٥٠ عامًا فيتحقَّق القرَّاء عدم استقامة الرحَّالة الانكليزي وصدق الاب كيرخر الذي لم ينسب الى احد رهبان جمعيَّتهِ دعوى كاذبة . فضلًا عن انَّ هذا الوصف يتضمَّن فوائد عديدة تلذُّ مطالعتها معرفةً تقريباً غاية في الضبط عن الاصل البرتغالي وهو الفصل السادس والعشرون من تاريخ الحبش للاب پايز وقد اضفنا اليهِ قسماً من الخريطة التي اثبتها الاب دي ألميدا سنة ١٦٦٢ نقلًا عن الاب پايز عينهِ . وقابلنا بينها وبين خريطة الحبشة كما تُعرَف اليوم ليستدلَّ القارئ بالمقابلة على صدق اولئك المرسلين القدماء الذين كانوا ارفع مقاماً واشرف نفساً من ان ينسبوا لنفوسهم مدَّعيات فارغة

الفصل السادس والعشرون (من تاريخ الأب پايز اليسوعيّ)

في النيل ومنبوعهِ

« واذ كنَّا قد بحثنا عن خصب الاراضي التي يملك عليها « الكاهن يوحنَّا » (١ فلا بُدَّ ان نلحق بذلك فصلًا عن اخصبّ الانهار والبحيرات التي بها تركو وتخصب تلك الانحاء . واوَّل ما يتبادر الى ذهننا انَّما هو ذلك النهر الشهير الصافي اعني بهِ النيل الذي دعاهُ الكتبة الاقدمون والمحدثون استنادًا الى سفر التكوين في فصلهِ الثاني باسم جيحون. قال الله (تك ٢ : ١٣) : « واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع ارض الحبشة » . اما اهل هذه البلاد فيدعونهُ اباوي (Abaoui) اي النهر الكبير . ومنبعهُ في مملكة قوجام في بلاد صحالا التي يُعرَف اهلها باسم اغوس وهم نصارى الَّا انَّهُ قد غلبت عليهم خرافات وثنيَّة متعدّدة لمجاورتهم لبعض القبائل من جنسهم لا تزال تدين بعبادة الاصنام وهي كثيرة العدد

١) هكذا كان الاوربيُّون يدعون ملوك الحبشة سابقًا وقد ذهبوا في تفسيرهِ مذاهب شتَّى

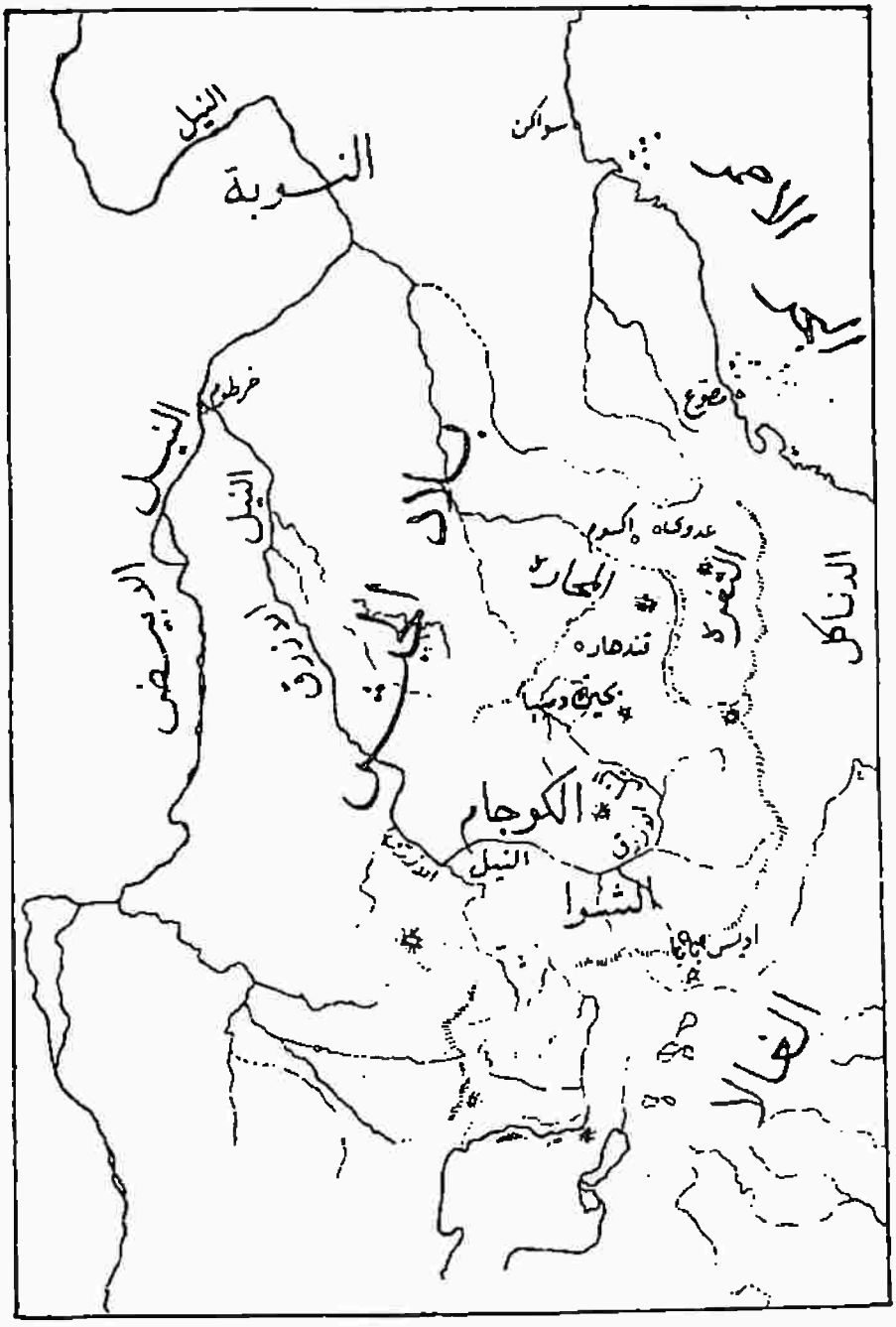

رسم خارطة الحبشة كما تُعرَف اليوم

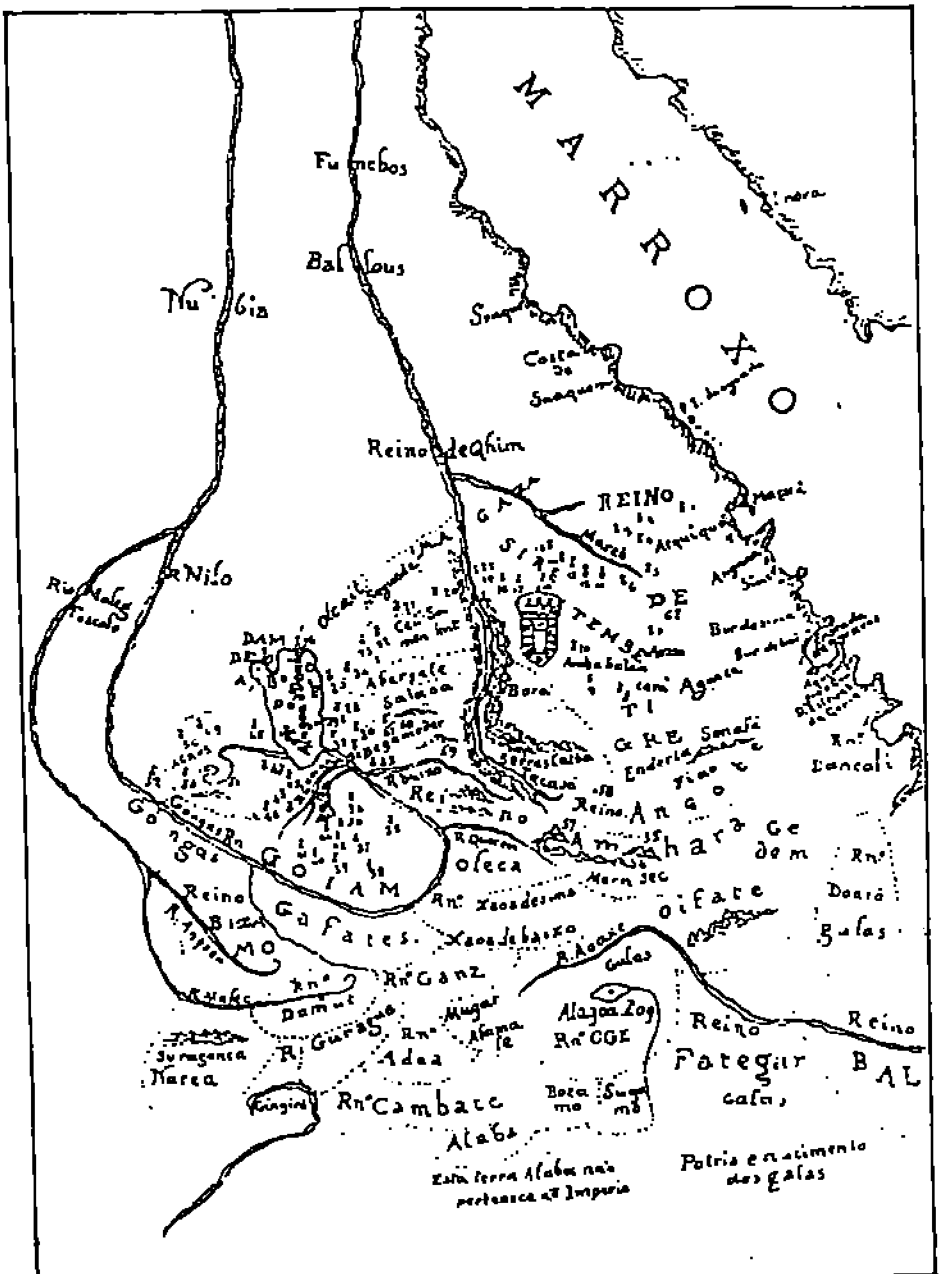

DESCRIGÃO DO EMPERIO DE ÆTHIOPIA.
Pello Pe Manoel Dalmeida da Compa de Jesus. Anu. MDCLXII
قسم من خارطة مملكة الحبش كما رسمها الاب دي أليدا اليسوعي سنة ١٦٦٢

« وموقع هذا النبع تقريباً غربي هذه المملكة (casi ao poente) عند رأس وادٍ مشبع كأنهُ السهل . وقد تمكّنتُ من مشاهدة هذا الينبوع في ٢١ نيسان من السنة ١٦١٨ . وكان اوّل ما لاح لي حوضين مستديرين يبلغ عرضهما اربعة اشبار فلمّا عاينت هذا المنظر اصابني منهُ فرحٌ عظيم اذ أُتيح لي بان اشاهد ما تاق الى رؤيته كبار الرجال والفاتحين ككورش وكمبيس واسكندر ذي القرنين وبرابوس قيصر

« وماء هذا الينبوع شديد الصفاء خفيف على المعدة كما لحظتُ وقد شربتُ منهُ . الّا انّ المياه لا تسيح على وجه الارض في قنّة الجبل لكنّها تنبجس في لحفهِ . وامرتُ احد رفقتي بان يركز رمحهُ في احد الحوضين وهو القريب من الطرف حيث ينبع الماء فادخلهُ الى طول احد عشر شبرًا فشعرتُ بجذور الشجر التي في قعرهِ كأنّها تسدُّ مسيل الماء

« ويوجد فوهة أخرى ينبع منها الماء وهي دون الينبوع السابق الى الشرق على مسافة نحو رمية حجر منهُ (abaixo pera oriente, como de hum tiro de pedra do primo) وقد سبرناها برمحٍ ذي اثني عشر شبرًا فلم يمكنّا بلوغ قعرها . فشدَّ احد البرتغاليين رمحين بلغ طولها عشرين شبرًا فلم يمكنهُ ان يدرك غور المياه والوطنيون يزعمون انّ غورها لا يُسبر وقد اخبرونا انّهم اذا مشوا حول هذه الغاور كان لمشيتهم جلبةٌ يُسمع لها صدىً في كلّ تلك الانحاء فيستنتجون من ذلك انّ هناك كهوفًا تتدفّق منها المياه وانّ فوق المياه جذورًا من الشجر مشتبكة ببعضها يخالطها شيء من التربة وذلك ما يسمع بالمشي فوقها . وقد اكّد لي كثيرون ومن جملتهم النجاشي نفسهُ الذي نزل في ذلك المكان بعسكرهِ انّ في هذه السنة لا يشعر المشاة بحركة مشيهم كما كان سابقًا وذلك لقلّة المياه والجدب الذي حصل في مدّة الصيف الاخير . امّا السنون السابقة فاكانوا يحلّون في هذا المكان الّا بكل حرص وكانوا اذا مشوا احسّوا بان الارض تُخسف تحتهم وتهبط بهم الى عمق ثمانية او عشرة اقدام . وكانوا يرون الماء ينبجس على شبه النوافر فيتصاعد الى الجوّ ثم يهبط . وكأنّ المسافة التي تشغلها هذه الينابيع مجيرةٌ قديمةٌ لا تبلغ طرفها رمية حجر الّا اذا أُلقي بالمقلاع

« واذا صعدت قريباً من النبع الى اعالي الجبل أُلفيتَ اوّلًا بعض المساكن واذا رقيت الى علو نصف ميل من الينبوع الغربيّ تصل الى جبلٍ يدعوهُ اهل تلك الناحية

غويكس (Guix) وقتئذٍ غاية في العلوّ ينخدع بهـا البصر فيظنُّها لا تتجاوز مرمى البندقيّة وكانت قبائل تلك البلاد تصعد الى مشارفها فتقدّم عليها عددًا من ذبائح البقر

« وفي ما فرط من الزمان كان يأتي هذه الجهات احد السَّحَرة فيذبح بقرةً يرمي برأسها في غمر المياه ثمَّ يصعد الى اعالي الجبل ويذبح ما يأتيـهِ بهِ الاهلون من البقر العديدة فيقدمها كتقدمة حافلة . ثمَّ كان يجعل على جسمهِ شحم الذبائح فيدخل في مرجـل عظيم نُصب فوق حطب منضود فيأمر بايقادهِ وكان يبقى في المرجل الى ان ينطفئ الحطب ويذوب الشحم على جسمهِ . وكان في بعض الاحيـان يدخل في المرجل بعد ان تُشعل النار وكان سحرهُ هذا يؤثر في الحضور فيكرمونهُ كوليّ عظيم ولا يطلب منهم شيئًا الّا نالهُ

« وفي السهول المنبسطة تحت هذا الجبـل تكثر مزارع القمح والشعير الى قرب الينابيع . امّا جهة الجنوب الشرقي والشمال فترى عنـد جوار الينابيع الدَّغل والاشواك تمتدُّ الى مسافة بعيدة وكأنها احراج الطرفاء وهي تنتهي الى مزدرعات نامية على مدى نحو ميل . وهذا المكان على مُرتفع لا يقدم اليهِ احد الّا صعودًا ويمكن ان يُرتقى اليهِ من ايّ جانب كان لكنَّ الطريق اصعب وأوعر من الشرق والغرب امـا الطريق من الشمال الى الجنوب فسهلة المرتقى . ومن جهة الجنوب على بعد نحو ميل من الينابيـع فرجةُ وادٍ عميق وعريض معًا يجري فيهِ نهر وسَط يسيل الى النيل ويصبُّ فيـهِ ولعلَّ هذا النهر صادر من الينابيع نفسها

« اما مجرى الماء الذي يسيل من الحوض المستدير الشكل فانهُ يسيـل الى جهة الشرق الى مبلغ رمية بندقيَّة حيث يُرى ثانيةً فيُعرَف بدلائل النبات الذي يجرُّهُ في سيرهِ ومن هيئة انعطاف الجبل . ثمَّ يدور الى جهة الشمال ويقطع مسافة ربع ميل ثم يعود الى وجهِ الارض متدفّقًا بين الحجارة . وهو هناك على غلظ جسم الانسان . واذا انحدر من هناك قليلًا انصبَّت فيهِ مياه جدولين آخرين من الشرق ثمَّ تأتيـهِ السواعد من كلّ الانحاء حتى اذا صار على بعد نحو يوم واحد جرى فيهِ مسيل كبير يُدعى « جاما » ثمَّ يسير بتَوْريبات ومنعرجات طويلة فيميل بعد مسافة ٢٠ او ٢٥ ميلًا الى جهة الغرب وتراهُ هناك نهرًا زاخرًا ثم يدور منعطفًا الى الشمال بينما تأتيهِ السواعد من كل صوب

حتى اذا بلغ الميل الخامس والثلثين دخل في بحيرة واسعة تدعى «باد» تنقسم بين مملكتي قوجام ودامبان

« والي قد مشيتُ على ضفّة هذا النهر وتبعتُهُ الى دخوله في البحيرة المذكورة ثمّ جريت على شاطئ البحيرة على مسافة طويلة وكنت ارقب جري النهر اي النيل في وسط البحيرة من مرقب عالٍ فظهر لي انّ النيل يخرقها على عرض نحو نصف ميل . واذ كانت البحيرة هادية صقيلة امكنني ان اميّز مجرى المياه . وكان النهر يُزجي اعشاباً شتّى ينقلها في سيره بلين . اما النباتات والتبن وغير ذلك مما كان على البحيرة في جانبي مجرى النهر فيكاد لا يتحرّك البتة . لكنّي لم ابلغ الى المكان الذي يخرج فيه النهر من البحيرة . ولعلّ المسافة بين مدخل النهر الى البحيرة ومخرجه منها نحو ستة اميال

« والنيل عند خروجه من بحيرة باد اغزر منهُ عند انصبابه فيها وهو مع كثرة مياهه يتّسع اتّساعاً بالغاً حتى انّ المشاة في فصل الصيف يمكنهم قطعهُ . واذا ما خرج من البحيرة مال الى الجنوب ميلاً خفيفاً ثمّ يسير خمسة اميال فيبلغ بلاد « علاتة » فيهبط من جنادل علوّها اربع عشرة ذراعاً . اما العرض بين الضفّتين فيبلغ رمية مقلاع . وفي فصل الشتاء عند زيادة المياه يحصل لسقوطها في الجنادل شبه الغمامة تُرى من مسافة بعيدة . وقد عاينتُ انا ذاتي هذه الغمامة غير مرّة . وبعد هذه الشلّالة بمسافة قليلة تنحصر المياه في مضيق يسهل مدّ جسرٍ من الخشب بين جانبيه وهكذا يقطعهُ النجاشي مع كلّ عسكره . وهناك تنتهي مملكة بدكام (ويقال ايضاً « بدكّام مدر » اي ارض بدكّام)

« ثم يجري النيل في مملكة قوجام على طول بلاد « احرة بلوكا » وشوا ودامات ولا يزال يتّبع حدود قوجام مستديراً حتى يصير بازاء « گار صنصا » وهو هناك قريب جدًّا من ينابيعه التي خرج منها حتى انّهُ يمكن الوصول اليها بمسيرة يوم واحد . وقد سألت النجاشي « سلطان صفد » واخاهُ « سيلا خرسطوس » كم ينبغي من المراحل لو اردت السير على النهر تابعاً كلّ منحطاته فاخذا يعدّان المراحل مع بعض وجوه الدولة فكان محصول الحساب انّ ذلك يقتضي ٢٩ يوماً

« والنيل بعد بلوغه « گار صنصا » يدور حول بلاد قوجام ويسري الى مملكة فزكولو واومباريا التي يسكنها الزنوج الذين قهرهم راس سيلاخرسطوس سنة ١٦١٣ .

وتلك البلاد واسعة جدًّا وهم يجهلون تخومها حتى انهم يدعونها باسم « ايز علـم » اي الدنيا الجديدة . ومن ورائها ليس سلطة للنجاشي وهم لا يعلمون شيئاً من امور اهلها لكنَّهم يقولون انَّ النيل يجري في بلاد الكفَّار ومنها يسيل الى مصر » انتهى

هذا هو الفصل العجيب الذي فصَّل فيه الاب پايز ما عرفهُ حقَّ المعرفة عن النيل الازرق وكلامهُ لا يبقي شكًّا لمستريب . والسلام

النتائج التاريخيَّة

من درس اعلام الاماكن اللبنانية

للاب هنري لامنس اليسوعي مدرس الجغرافيَّة والتاريخ في المكتب الشرقي (تتمَّة)

وفي بطرَّان من قضاء الكورة اثار عديدة من قبور واحواض كبيرة كلها منحوتة بالصخر قد وجدنا بينها اخرية تدعى اشمونيت زوَّج كونها انقاض هيكل اشمون الاله الفينيقي (١ الذي ينطبق على الاله اسكولاب اله الطبّ عند اليونان . وكانَّ النصارى القدماء ارادوا تقديس ذلك المكان فاقاموا هناك معبدًا باسم القديسة اشموني اضحى اليوم خرابًا والاهالي يكرّمونهُ وقد اعتادت النساء اللواتي يشعرنَ بألم في الصدر ان يمسحنَ موضع الوجع بماء معصوب على حجر من حجارة المعبد القديم . واشموني عند الشرقيين ام السبعة الفتية الشهداء المذكورين في سفر المكابيين لكنَّ الكتاب المقدَّس لا يذكرها اسماً ولعلَّ الشرقيين اشتقوا اسمها اشموني من العبرانية שמונה اي الثامنة لانها قُتلت بعد اولادها السبعة

*

قد ابنَّا غير مرَّة أنَّ لبنان يمتاز بنباتهِ الزاخر وغاباتهِ الملتفَّة . امَّا اليوم فمن يسرّح الطرف في ذرى هذا الجبل ويراهُ ابرد في اكثر اماكنهِ قليل الاحراج والاشجار نسب الينا التحمس والمبالغة وارتاب بصدق ما روينا من الادلَّة القديمة . غير أنَّ تسمية الاماكن تشهد بكثرة الاشجار والنبات في لبنان قديمًا . ومن ذلك الماكن المسمَّاة « غابة »

(١ راجع ZDMG, 1905. 459 etc,